تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

مقدمة « الملك أوديب » لتوفيق الحكيم :

بعد غيبة طويلة يعود توفيق الحكيم إلى قرائه ... ولست أرى من وراء هذه الكلمة إلى وضع كتابه الجديد فوق مشرحة النقد ، فإن موعدى معه فى الأسبوع المقبل أو الأسبوع الذى يليه ، وإنما أرمى إلى تناول هذه المقدمة بالنقد والتحليل ، لأنها تستحق من الناقد أن يخصها بكثير من التأمل والعناية .

كتب توفيق الحكيم هذه المقدمة ليصل من ورائها إلى هدفين : أولهما أن يقدم للقارئ عرضاً موجزاً لنشأة المسرحية فى الأدب العربى المعاصر ونشأتها فى الأدب اليونانى القديم ... وليقدم له أيضاً بعض العلل والأسباب التى حالت فى رأيه بين الأدبين وبين التزاوج فى مجال الأدب التمثيلى ، على الرغم من هذا التزاوج الذى حدث بين الفلسفة اليونانية والفكر العربى . هذا هو الهدف الأول ، أما الهدف الثانى فيدور حول هذا العمل الفنى الذى أقامه على دعائم الأسطورة اليونانية عند سوفوكليس؛ أسطورة « أوديب الملك » .

ولقد تساءل الأستاذ الحكيم وهو فى رحاب الهدف الأول الذى أشرت إليه عن سر إحجام العرب عن ترجمة مآسى شعراء الإغريق مع أنهم نقلوا كتاب الشعر لأرسطو وفيه تعريف بالتراجيديا والكوميديا وما إليهما من فنون الشعر التمثيلى ، ومع أنهم نقلوا إلى جانب هذا الكتاب بعض الآثار الأخرى فى الفكر اليونانى ... هل يكون الإسلام هو الذى حال دون اقتباس هذا الفن الوثنى ؟

إن الإسلام فى رأى الأستاذ الحكيم لم يحل بين الناقلين وبين ترجمة كثير مما أنتج الوثنيون . كما أن الإسلام لم ينكر خمريات أبى نواس ، ولا نحت التماثيل فى قصور الخلفاء ، ولا براعة التصوير فى « للياتور » الفارسى ! ... أهى الصعوبة إذن فى فهم هذا اللون من القصص الشعرى وكله يدور حول أساطير ؟ كلا ، فإن كتاب « الجمهورية » لأفلاطون قد حفل بأفكار يدق فهمها على العقلية العربية ، ومع ذلك فقد نقل إلى العربية وتناوله الفارابى بالبحث والمراجعة !

بعد هذين الفرضين يرد الأستاذ الحكيم علة الإحجام إلى أن التراجيديا الإغريقية فى ذلك الحين لم تكن أدباً مهيأ للقراءة والاطلاع ، ولكنها كانت أدباً معداً للتمثيل والمشاهدة ... ومن هنا لم يجد المترجم العربى حين اطلع عليها كبير نفع ولا غناء ، لأن الشروح والملاحظات التى كان يمكن أن تنير له الطريق ، لا تتضح إلا أثناء التمثيل أمام جمهور من النظارة ، وهذا أمر لم يقدر للعرب أن يروه من قريب أو من بعيد !

وأعقب على هذا كله فأقول : إن المسألة لا تحتاج فى رأيى إلى كل هذه الفروض ... فلو أن الأستاذ الحكيم قد حاول أن يختبر معدن العقلية العربية فى ذلك الحين ، لوجد أن هذا المعدن كان يستجيب لحرارة التفكير العلمى أكثر مما كان يستجيب لحرارة التفكير الفنى ؛ ومن طبيعة معدن هذا شأنه أن يسيغ كتاباً لأرسطو وأفلاطون ، أكثر مما يسيغ تمثيلية ليوريبد أو سوفوكل ! ...

إن العقليات معادن ، والعقلية العربية فى عصورها الأولى كانت عقلية جدل ومناقشة ، يستهويها ويثير اهتمامها ما يحرك فى طبيعتها نزعة الجدل والمناقشة ... لماذا ؟ لأنها كانت تسعى وراء الحقائق ، تحاول جاهدة أن تكشف عنها على ضوء من نور العقل وحده دون سواه ... ومن هنا كان هذا الإغراق فى العقليات ، الإغراق الذى كاد يستأثر بعناية العرب ويستغرق كل وقتهم وجهدهم وطاقتهم الفكرية . أما التمثيلية التى تقوم على الأسطورة ، فكان من الطبيعى ألا تستهوى عقلية جبلت على السعى وراء الحقيقة ! إنها عقلية تريد أن تناقش وتبحث وتجادل وتقرع الحجة بالحجة وتقيم الدليل على أنقاض الدليل ، فأين هذا كله من مجال يقوم العمل الفنى فيه على صراع النزعات النفسية والعواطف الإنسانية ، وأعنى به مجال الأدب التمثيلى عند اليونان؟!

هذا التفسير يمكن أن نجيب به مرة أخرى على الأستاذ الحكيم حين يتساءل فى موضع آخر : لماذا لم يوجد التمثيل فى

الحضارة العربية ولم يعرف ؟

لقد أرجع الأستاذ هذا الأمر إلى طبيعة عدم الاستقرار في الوطن العربي إبان عصوره الأولى ... إن التمثيل في حاجة إلى مسرح ، والمسرح في حاجة إلى استقرار ، والاستقرار أمر لم تهيئه البيئة للعربي الذي كان يسعى وراء قطرة ماء تلوح له هنا أو هناك !

وإذا كان العرب قد تهيأ لهم في العصرين الأموي والعباسي وما بعدهما أن يحيوا حياة مستقرة ، فإن ابتعادهم عن التمثيل كان مرجعه إلى أنهم لا يعدلون بشعرهم العربي شعراً آخر ، حتى ولا هذا الشعر اليوناني الذي أقيم على أركانه بناء التمثيلية اليونانية !

وفي موضع ثالث ينتقل الأستاذ الحكيم إلى مقدمة « كورميل » لفكتور هوجو ، وهي المقدمة التي يقسم فيها تاريخ البشرية إلى عهود ثلاثة : العهد الفطري وهو عهد الشعر الغنائي ، والعهد القديم وهو عهد الملحمة ، والعهد الحديث وهو عهد التمثيلية ... هذه النظرية التي ينادي هوجو بإمكان تطبيقها على أدب كل أمة من الأمم ، يرى الأستاذ الحكيم أنها تصلح للتطبيق على الأدب العربي « إذا ما تغاضينا عن (القوالب) واقتصرنا في بحثنا على (الأغراض) ؛ ففي العصر العباسي وحده نجد البحتري قبل المتنبي ، والمتنبي قبل أبي العلاء ، ولو غرس هؤلاء الشعراء في أرض اليونان ، لكان البحتري (صناجة العرب) هو (بندار) ، ولكان المتنبي الذي دوى في آذاننا على مدى الأجيال بصليل السيوف هو (هومير) ، ولكان أبو العلاء الذي سور لنا التفكير في الإنسان ومصيره واللأ الأعلى هو (إشيل) ... فالتطور إذن من حيث الموضوع قد تم » .

يبدو لي أن الأستاذ الحكيم قد نسي أن هوجو يدعونا إلى تطبيق نظريته على أدب كل أمة من الأمم على مدار تاريخها كله ، لا على مدار عصر بعينه كما فعل حين قصر التطبيق على العصر العباسي ... إن هوجو ينسب الشعر الغنائي إلى العهد الفطري ، فهل كان البحتري من العهد الفطري ؟ وينسب الملحمة إلى العهد القديم ، فهل كان المتنبي من العهد القديم ؟ وينسب التمثيلية إلى العهد الحديث ، فهل كان أبو العلاء من العهد الحديث ؟ ! ...

أما مسألة (القوالب والأغراض) ، فأظن أنه لم يبق لها ما يبررها ما دام التطبيق قد بعد عما يهدف إليه هوجو من وراء نظريته ...

ثم يقول الأستاذ الحكيم في موضع رابع إن فلاسفة العرب قد صبغوا آثار أفلاطون وأرسطو بلون تفكيرنا وطبعوها بطابع عقائدنا ... في رأيي أن شيئاً من هذا لم يحدث ، إن كل ما فعله فلاسفة العرب هو أنهم نظروا في الفلسفة اليونانية فنقلوا بعض ما فيها من آراء ومذاهب نقلا يحفل بالخلط والتشويه ؛ ذلك لأنهم حاولوا أن يوفقوا بين تعاليم الفلسفة اليونانية وبين تعاليم الدين الإسلامي ، فكانت محاولة انتهت بأصحابها إلى الإخفاق ، أما الإخفاق فرجعه إلى بعد الشقة بين العقلية اليونانية والعقلية العربية من جهة ، وبين منهج الفلسفة اليونانية ومنهج الديانة الإسلامية من جهة أخرى ، ومن هنا كانت الفلسفة الإسلامية خليطاً عجيباً من أفكار مضطربة لا تقترب كثيراً من الدين ولا من الفلسفة ، ونظرة متأنية إليها فيها الدليل كل الدليل !

أما الجزء الأخير من مقدمة « أوديب الملك » ، وهو الذي عرض فيه الأستاذ الحكيم لمن تناولوا أسطورة سوفوكليس في آثارهم الفنية ، من أمثال « بيتس » و « هوفمانستال » و « سان جورج دي بوهلييه » و « جان كوكتو » و « أندريه جيد » ، هذا الجزء الأخير يحفل بكثير من اللمحات المشرقة ، وكم أود أن يرجع إليه القارئ لأنه يعد في حقيقته مفتاحاً لتلك الأعمال الفنية التي أعقبت « أوديب » سوفوكل ، ومنها هذا العمل الناضج الذي قام به توفيق الحكيم .

« قطرات ندى » لراهبي الراعي :

كتاب نفيس عثرت عليه في سوق الوراقين ، وما أكثر ما يجد المرء في سوق الوراقين من نفائس ... ولقد عثرت عليه عارياً لا يتشح بغلاف يمكن أن يهديني إلى اسم صاحبه ! وحين خلوت إليه أقلب صفحاته بين يدي رأيتني أمام كتاب ممتاز لأديب ممتاز ، ولكن من هو هذا الأديب الذي عزني وأين مكانه ؟ إنه يعرض في الصفحات الأولى من كتابه لبعض الأماكن في لبنان ولبعض رجال الصحافة والأدب في لبنان ، ترى أيكون صاحب « قطرات ندى » هو جبران أو الريحاني أو نعيمه ؟ لقد وقع في ظني أن يكون واحداً من هؤلاء الثلاثة ، لأنه في رأيي لا يفترق عنهم في سمة أفقه ومضات فكره وثبات خياله هذا ما وقع في ظني ، ولكنني حين رجعت إلى أحد أصدقائي

من الأدباء اللبنانيين أسأله عن الكتاب وصاحبه، تلقيت منه رسالة يبلغني فيها أن صاحب « قطرات ندى » هو راجي الراعي. راجي الراعي ؟ كيف يكون في لبنان مثل هذا الأديب الممتاز ثم لا أعرفه ولا يعرفه غيري ولم نسمع به من قبل ؟! وإذا كان قد انقطع عن الكتابة فأي شأن من شئون الحياة قد شغله عن الأدب وحال بينه وبين ميدانه ؟. . ومرة أخرى تلقيت رسالة من الأديب اللبناني الصديق، تحمل إليّ الجواب عما أثرت من أسئلة حول صاحب « قطرات ندى ». إن راجي الراعي كما يقول الصديق في رسالته أديب كبير من طراز ميخائيل نعيمه، ولكنه انصرف عن الأدب منذ أمد بعيد حيث شغل بالتفرغ لمهنة المحاماة ومنصب القضاء.

لا أدري كيف يستطيع بعض الأدباء الناضجين من أمثال راجي الراعي أن ينصرفوا عن ميدانهم الأصيل وهو ميـــدان الأدب ! ... إن « إدوار هريو » سياسي فرنسي له في رحاب السياسة شأن كبير ومكان ممتاز، ولكنه في رحاب الأدب أعظم شأناً وأرفع مكاناً عند الذين يقيمون الميزان لحقيقة هذا السياسي الأديب، ومع ذلك فلم تستطع السياسة أن تشغله عن ميـــدانه الذي أخرج فيه كتابين من أنفس وأعمق ما ظهر في الأدب الفرنسي المعاصر، وأعني بهما كتابيه عن « بيتهوفن » و « مدام ريكاميه » !

هذه تحية أبعث بها إلى راجي الراعي على صفحات الرسالة.. ولعله يلبي دعاء الأدب يوماً فيعود إلى ميدانه، لأن مجاله هنا كما أعتقد وليس هناك ! وفي المدد المقبل أقدم بعض كلماته وتعليقاته

رسالة لطفي السيد إلى الشباب :

لطفي السيد أستاذ الأساتذة في هذا الجيل، وهو واحد من هذه القلة التي تزن القول حين تطلقه، وتزن الرأي حين تنادي به وما أجدر الشباب حين يتحدث هذا الرجل أن ينصتوا إليه، وأن يتدبروا كلماته، وأن يتخذوا من نصائحه وخبرته وتجاربه ما يشحذ هممهم، ويقوي عزائمهم، ويسدد خطاهم، في هذا الطريق الطويل الذي تتجاذبهم فيه عواطف الشباب وتزواته !

يقول لطفي السيد في رسالته التي حملتها « الأهرام » منذ أيام إلى ناشئة البلاد من طلاب الجامعة : إن التعليم الجامعي أساسه حرية الفكر، والتربية الجامعية قوامها حرية العمل، ورسالة الجامعة هي إعداد الطلاب لخدمة وطنهم في جميع نواحي الخدمة العامة من سياسية واجتماعية وفنية. ثم يقول لطفي السيد بعد أن تناول هذه الأهداف بالشرح والتفصيل « هذه هي رسالة الجامعة فيما أعتقد أنه المثل الأعلى للجامعات. فإن يكن انصراف عن الجادة المثلى وميل عن سواء السبيل، فمرجع هذا الحال في تقديري إلى انصال الأحزاب السياسية بالطلبة وصرفهم عن واجبهم العلمي إلى الاشتغال بالسياسة العملية. أنا لا أكره أن يشتغل الشبان بالسياسة على اعتبار أنها موضوع نظري يدرس وتناقش مذاهبه المختلفة القديم منها والحديث. أما السياسة العملية فقد حذرت الشبان دائما من الإسلاس لقيادة القائمين بها من الأحزاب والهيئات إذ كنت أرى ولا أفتأ أقول : إن السياسة إذا تدخلت في التعليم أفسدته، ولا علم على الوجه الصحيح إلا إذا تفرغ الطالب له وتجرد عن كل غرض سواه » !

هذا هو حديث لطفي السيد إلى الشباب، وإنه لحديث يقضي به الرجل في إبانه ... إننا ننظر اليوم فنجد بعض طلاب العلم وقد تحولوا إلى طلاب دعاء، وبعض عشاق المعرفة وقد انقلبوا إلى عشاق هدم وتدمير، وبعض الإشراق الذي كان يشع من نفوسهم وقد انتهى إلى إحراق ! ترى كيف تحول وهج العلم في أذهانهم إلى وهج رصاص في أيديهم، حتى لقد أصبحنا نشفق على مستقبل الشباب من أزمتين : أزمة الضمير العلمي وأزمة الضمير الإنساني !

القول ما قال لطفي السيد، وهو أن السياسة إذا تدخلت في التعليم أفسدته، ولا علم على الوجه الصحيح إلا إذا تفرغ الطالب له وتجرد عن كل غرض سواه !

حول تحية الأديب للرسالة :

وعدت القراء في عدد الأسبوع الماضي أن أتناول بالتعقيب خبر اختفاء « الرسالة » من الجناح المصري في معرض الكتاب الذي أقامته الحكومة اللبنانية بمدينة اليونسكو، وهو الخبر الذي نشرته زميلتنا « الأديب » اللبنانية وعلقت عليه بما شاء لها الأدب الجم والتقدير الكريم ... ومرة أخرى اعتذر عن ضيق النطاق مرجئاً التعقيب إلى المدد القادم إن شاء الله.

أنور المعداوي